علم النفس

للاستاذ احمد ابراهيم فؤاد الدلجوانى
مدرس علم النفس بالمدارس الثانوية الأميرية

لم يصبح علم النفس علما وضعيا بالمعنى الذى نفهمه من علم إلا من عهد قريب ، ذلك أنه كان فرعا للفلسفة ، وهذا يرجع إلى شيء واحد هو أن الباحثين فى علم النفس وضعوا نصب أعينهم أن علم النفس هو العلم الذى يبحث عن ماهية النفس أو الروح ، ولما كان هذا البحث غير مجد بل هو بعيد عن التحقيق العلمى ـ إذ هو عرضة للمناقشة والجدل والتناقض ـ لم يصل الباحثون فيه الى معرفة صحيحة جديرة بالاعتماد عليها . ولما كانت مهمة القدماء هى البحث عن النفس أو الروح نعتوا العلم الذى يدرس هذا بعلم النفس و Psychology وهي كلمة أجنبية تمتد أصولها إلى كلمتين اغريقيتين psychê ومعناها النفس أو logos أى علم . ثم انصرف العلماء الى البحث عن شيء آخر أكثر انتاجا وأدعى الى الوصول الى نتائج صحيحة ، ذلك هو مظاهر النفس لأن النفس أو الروح شيء لا ندركه ولا نمسه ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

فاذا كنا قد احتفظنا بهذه التسمية الخاطئة فهو احتفاظ غير صائب ، ولكننا تعودنا ذلك فلا سبيل للرجوع عنه ، مثلنا فى ذلك مثل إطلاقنا اسم جزر الهند الغربية خطأ على الجزر الواقعة فى شرق امريكا . لذلك يجب أن نلقى فى بالنا أن علم النفس لا يبحث عن ماهية النفس أو كنهها ، ولكن هو العلم الذى يبحث فى المظاهر النفسية .

ولقد ازداد الاهتمام بدراسة هذا العلم فى الخمسين سنة الأخيرة ، ويلاحظ أنه لم يظهر اهتمام الانسان بدراسة أخيه الانسان مثلما ظهر فى هذا العهد ، فقراءة الجرائد فى شغف من جميع الطبقات ، وازدياد الرغبة فى مطالعة القصص ، وكثرة ارتياد دور السينما والتمثيل حيث تمثل دراما الحياة ـ كل هذا يؤكد لنا اهتمام الانسان بالاطلاع على نفسية الآخرين . ولكن ما سبب هذا الاهتمام ؟ لعل له أسباب كثيرة ، نذكر منها انتشار الديمقراطية واعتقاد الناس فى المساواة ، وإدراك الناس لهذه الحقيقة وهى أنهم جزء فى مجتمع يؤثرون فيه ويؤثر فيهم ، ولما كان كل انسان يسعى إلى غرض يريد أن يصل اليه ، وهذا الغرض لا يتحقق إلا بواسطة الآخرين وعن طريقهم ـ فهو يسعى لفهم نفسياتهم حتى يشق لغرضه طريقا معبدة وسط الناس .

فالتاجر يعرف أنه يجب عليه أن يدرس نفسية الجمهور الذى يعامله ، بأن يعرف حاجاته وكيف يلفت انتباهه اليه ، وما هى ميوله ورغباته ، كى يزيد فى زبائنه ، ولذا يجب عليه أن يتعلم كيف يعلن عن نفسه وعن بضاعته ، وكيف يعامل مختلف الناس الذين يشترون منه ولا يتسنى له ذلك إلا اذا درس طبائع الناس المختلفة .

وصاحب المصانع لايكفى أن يعرف كيف يسوس عماله بأن يحسن قيادتهم ، ويشرف على عملهم ، ولكن يجب أن يعرف كيف يوفق بين مقدرة كل عامل والعمل الذى يستطيع أن يقوم به ، وهنا تتدخل عوامل التعب ، واقتصاد الوقت ، والتسلية ، وخلق الرغبة فى العمل . هل تدرى أن عمال « فورد » يشتغلون خمسة أيام فى الاسبوع فقط ؟ ومع ذلك ينتجون أكثر من غيرهم . تستطيع أن تقيس على هذا كل ذى عمل سواء أكان طبيبا ، محاميا ، مدرسا ، خطيبا ، صحافيا ، أم أى شيء آخر .

موضوع علم النفس : لابد لكل علم ليكون علما أن يتحقق فيه شرطان : الأول أن يكون له موضوع خاص به مستقل عن باقي العلوم ، والثانى أن يكون له منهج خاص لدراسته . وقد كان علم النفس إلى وقت قريب كما ذكرنا بعيدا عن قائمة العلوم ، إذ لم يكن له موضوع قائم بذاته بل كان فرعا من الفلسفة ، بل فرعا لفرع من الفلسفة هو علم ماوراء الطبيعة ، أما الآن فقد أصبح علما ، إذ له موضوع وله أسلوب خاص بدراسته . وهناك من يذهب إلي أن علم النفس إن هو إلا فرع من علم وظائف الأعضاء ولذا وجب التفرقة بينهما .

ما الفرق بين الظواهر النفسية مثل الألم ، الفرح ، الرغبة ، الميل ، التفكير ، وبين الظواهر الفسيولوجية مثل حركة التنفس ودقات القلب والنبض (١) الأولى نلاحظها ملاحظة باطنية شخصية ، ولا يعرفها على التحقيق إلا الشخص نفسه بينما الثانية نلاحظها ملاحظة خارجية . (٢) الظاهرة النفسية غير قابلة للقياس ، لا مادة لها ، ولكن الثانية قابلة للقياس وهي ترجع فى النهاية الي الحركة و إلى اهتزازات سببها تغيرات كيمائية .

أما منهج البحث فيه : فيختلف عن غيره من مناهج العلوم ، فهو غير منهج الرياضة وغير منهج الطبيعة والكيمياء ، وأهم طرق البحث المتبعة فى علم النفس بحسب أهميتها هي : —

(١) التأمل الباطنى (٢) المشاهدة الخارجية (٣) علم النفس التجريبى (٤) علم النفس المقارن .

تحليل الظواهر النفسية : يفرقون عادة فى علم النفس ثلاث مظاهر عقلية أساسية ، فالانسان يشعر و يفكر و يريد . فهناك إذن ثلاث مظاهر : الادراك ـ الشعور ـ الوجدان ـ النزوع .

لكن كيف وصلنا إلى هذا التقسيم ؟

من الثابت أن الحياة النفسية متصلة مستمرة لا انقطاع فيها . وإننا اذا درسنا حالة من الحالات النفسية فأننا نقتطعها اقتطاعا من الحياة النفسية . والظاهرة النفسية هى لحظة من حياة الشعور consciousness نركز فيها انتباهنا ونفصلها من مجرى الشعور لأنها تهمنا أهمية خاصة.

لنضرب مثلا بسيطاً يوضح ما نقول ، أنا الآن سائر فى الحديقة فقطفت وردة حمراء فانتزاع الوردة الحمراء من الشجرة ، هذه ظاهرة نفسية محدودة ، وعند تحليلها نقول : إنى أبصرت بالوردة فحصل فى ذهنى صورة الوردة عن طريق الاحساس أى لونها وشكلها ورائحتها فهذا إدراك ، ثم بعثت فى نفسي شعوراً بلذة أو فرح فهذا وجدان ، ثم مددت يدى لقطفها فهذا نزوع . ولكنى أبصرت غير الوردة أى كل ما يحيط بها ، وسمعت أصواتا كثيرة ، وشممت أريجا من الروائح الأخرى ، كل هذا كان موجوداً فى عقلى ولكني انتزعت هذه الظاهرة النفسية دون نظر إلى ما جال بخاطرى مما ذكرت لتسهيل البحث .

ويجب أن نعلم أن هذا التقسيم المذكور هو تقسيم صناعى ، فليس هناك إدراك ووجدان ونزوع مفصل ، ولكن كل ذلك حصل فى لحظة واحدة اختلط فيها الكل ، وانساب الادراك والوجدان والنزوع بعضها على بعض . فنحن ننظر إلى الظاهرة النفسية الواحدة من وجوه ثلاثة هى التى ذكرناها .

والخلاصة هى أنه لا يوجد ثلاثة أنواع من المظاهر النفسية ولا ثلاثة عناصر تحوى الظاهرة النفسية الواحدة ـ ولكننا لفائدة البحث ولتسهيل درس الحياة النفسية ـ ننظر إلى الحالات النفسية من هذه الأوجه الثلاثة ونقسمها هذا التقسيم الثلاثى .

ومع ذلك فأننا لسنا متعسفين فى هذا التقسيم إلى هذا الحد إذ هناك ما يبرر هذا التقسيم فعلا.

ذلك أننا إذا كنا لا نعثر على حالة نفسية إدراكية بحتة أو وجدانية بحتة أو نزوعية بحتة فأننا نجد مظاهر تميل ميلا كبيراً إلى ناحية من هذه النواحى الثلاث . فالعالم الذى يجلس إلى مكتبه يقرأ كتابا يبحث فى نظريات العلم وهو منصرف الى التفكير فيه ، فناحية الادراك متغلبة عنده . كذلك الشخص الذى يصاب بنكبة ما ويستسلم إلى الحزن فالوجدان متغلب عليه .

ولذلك فنحن فى لغتنا العادية نقول : هذا شخص مفكر أو شخص وجدانى أو شخص ذو عزيمة لا نعنى بالمفكر أن الوجدان والنزوع منعدمان عنده ، ولكن الناحية الأدراكية هى الغالبة . وهناك أساس فسيولوجي يدعونا الى الأخذ بهذا التقسيم لأننا نميز ثلاثة أنواع من الأعصاب.

لما قدمنا من الأسباب قسم علماء النفس المظاهر النفسية الى ثلاثة : إدراك ووجدان ونزوع

احمد ابراهيم الأهوانى